

مصدر السلطة والشرعية لدى المثقف والسياسي في الجزائر وطبيعة العلاقة بينهما

أ/ دادي محمد ، جامعة تيارت/ طالب دكتوراه بجامعة وهران 2

بإشراف أ.د/مزوار بلخضر، جامعة تلمسان

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مواقف وآراء المثقفين الجزائريين، وذلك بالرجوع إلى الفترة الاستعمارية، أي اتخاذ فترة بداية القرن العشرين كمرحلة مرجعية، وذلك لسببين اثنين وهما: -التحاق بعض الجزائريين بالمدرسة الاستعمارية ووصول بعضهم إلى مستويات علمية رفيعة، وهذا ما أهّلهم إلى أن يكونوا من فئة المثقفين بالمفهوم الحديث للكلمة. أما السبب الثاني فهو وجود الظاهرة الاستعمارية والتي تتطلب نضالا وكفاحا من أجل استرداد الحرية والاستقلال من طرف شعب مستعمر، والذي من المفروض أن يكونوا المثقفين في طليعته.

فالفئة المثقفة الجزائرية في معظمها خلال النصف الأول من القرن العشرين، كانت تطالب بالاندماج والمساواة مع الفرنسيين داخل الدولة الاستعمارية، في حين أن الفئات الشعبية هي التي انحازت إلى الحركة الوطنية والتيار الاستقلالي. كما أن الحرب التحريرية قامت في غياب المثقف وكان التحاقه بها متأخرا نسبيا وهذا ما جعله في موقع التابع للسياسي (العسكري). وقد استمرت هذه العلاقة إلى ما بعد الاستقلال، حيث بقي المثقف الجزائري بعيدا عن سلطة القرار السياسي لافتقاده للشرعية والمشروعية التي استولى عليها (السياسي-العسكري) باسم الشرعية التاريخية والثورية.
الكلمات المفتاحية: المثقف، السياسي، الثورة، السلطة، الشرعية، المشروعية.

Abstract : The aim of this study is to reveal the attitudes and opinions of the Algerian intellectuals by reference to the colonial period, ie, the beginning of the twentieth century as a reference stage. This is because of the following two reasons: - Some Algerians enrolled in the colonial school and some of them reached high levels of science. Of intellectuals in the modern sense of the word. The second reason is the existence of the colonial phenomenon, which requires struggle and struggle for the restoration of freedom and independence by a colonized people, who are supposed to be intellectuals at the forefront. During the first half of the 20th century, the Algerian intelligentsia was demanding integration and equality with the French within the colonial state, while popular groups were aligned with the national movement and the independence movement. In addition, the liberation war was carried out in the absence of the intellectual. This relationship continued until after independence, where the Algerian intellectual remained away from the power of political decision for his lack of legitimacy and legitimacy seized (political-military) in the name of historical and revolutionary legitimacy.

Bey words : intellectual, political, revolution, power, legitimacy.

مقدمة: لا يمكن لأي مجتمع من المجتمعات أن يستغني عن الفئة المثقفة، لأنها هي الفئة المستنيرة التي بإمكانها نشر الوعي الاجتماعي وتنوير العقول، وتحديد الأهداف ورسم الآفاق المستقبلية للمجتمع والدولة معا. فالمتتبع لتاريخ الحركات الاجتماعية والثورات الكبرى يجد أن منظريها وقادتها كانوا مثقفين في الغالب. غير أن في الجزائر ونتيجة للاستعمار الاستيطاني الذي عرفته وما انجر عنه من تفكيك وتدمير للبنى السوسيو-ثقافية للمجتمع عن طريق السياسات الكولونيالية، والتي يعتبر التعليم أبرزها، حيث عمد الاستعمار إلى تفكيك التعليم المحلي ومن ثم إغتراب الأجيال واللامية في أوساط الجزائريين، واستبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية والتي لم تكن متاحة إلا لفئة قليلة من الجزائريين. ونتيجة لهذه السياسة ظهرت فئة متعلمة من الجزائريين آمنت بمبادئ الحضارة الغربية عموما والثقافة الفرنسية على وجه الخصوص، وانتهرت بالتفوق العلمي والتقني لهذه الثقافة. وهذا ما انعكس على سلوكها وعلى طريقة عيشها، ومن ثم على آراءها ومواقفها من الاستعمار ومن الشعب الجزائري على السواء.

وفي المقابل كانت الغالبية من الجزائريين تعيش تحت وطأة الجهل والامية والفقر، هذه الفئة هي التي كونت النواة الصلبة للحركة الوطنية والتيار الاستقلالي الذي ناضل من أجل استقلال الجزائر، وكانت الحاضنة التي احتضنت النضال السياسي في الثلاثينيات والأربعينيات، وحملت السلاح وفجرت الحرب التحريرية في 54 في غفلة من المثقفين الذين انقسموا بين الاندماج والمساواة والانتخابات. ومن هنا وجد المثقف نفسه خارج اللعبة، وأمام خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما الانضمام للثورة وبالتالي تبعيته لمفجريها، وإما الإخلاص لمواقفه وتصوراتته وبالتالي الحكم على نفسه بالإقصاء والخيانة. ومن هنا يمكننا طرح الإشكال التالي: هل علاقة المثقف بالسياسي في الجزائر هي علاقة تبعية وسيطرة أم تكامل وتفاهم؟ وهل أنه من غير الممكن أن نفهم هذه العلاقة إلا بإرجاعها إلى مرحلة الحركة الوطنية والحرب التحريرية؟

1- المثقف الجزائري والحركة الوطنية:

في بداية القرن العشرين، بدأت الفئة الجزائرية المتعلمة في تشكيل هوية سياسية وثقافية تحت اسم (الشباب الجزائري). فأطفال القرن، كما يجب أن يسميهم (R.Ageron أجرون) ليسوا جيلا عضويا لسنة 1900. ولكن يجب أن ننتظر نهاية الحرب العالمية الأولى، كي يمكننا أن نفهم أكثر حركة (الشباب الجزائري)، ولكن هذه المرة مع فاعلين جدد في الحقل السياسي وفي الصحافة، أين نجد أن الأغلبية من الناشطين كان يدرسون في الثانوي كما نجد بعض الطلبة مثل (شريف بن حبيلس المولود سنة 1881، والدكتور محمد بن جلول، العربي طهرات وشريف سيسبان المولود سنة 1896، وفرحات عباس والدكتور بن خليل المولود سنة 1899 وبين عودة حاج سحان بشطارزي، المولود سنة 1894، ومحمد العزيز كسوس المولود سنة 1903¹. فقد مثل هذا الجيل الفئة المثقفة باللغة الفرنسية، واللذين ساهموا في إنشاء

العديد من الجرائد والصحف، والتي كانت تدعو في معظمها إلى الاندماج داخل الدولة الفرنسية، وتطالب بالمساواة ما بين الفرنسيين والجزائريين تحت مظلة الدولة الاستعمارية الفرنسية.

فمشاعر المثقفين الجزائريين بعد الحرب العالمية الأولى، هي العامل الذي وجّه الأقسام السياسية لهذه النخبة². إذ نجد فاني كولونا Fanny Collona تعرف المعلمين الجزائريين أنهم: " وبالرغم من اختيار سياسة الاندماج كهدف نهائي حصرهم مسبقا في أطر النظام الكولونيالي الذي ينازعونه، فإن محتوى مطالبهم كان ثوريا بالمعنى الحرفي للكلمة"³. وقد أسس المعلمون جمعيتهم الأولى سنة 1912، ويلهم طلبة جامعة الجزائر وخريجي المدرسة Médersa في 1919. أما العلماء المسلمين الجزائريين فقد أسسوا جمعيتهم في 1931. والتناقض يكمن في الفعل والمبادرة حيث أن كلما زادت درجة التنظيم الداخلي وارتفعت، كلما تعقدت وظيفة المثقفين أكثر فأكثر⁴. وهذا ما تبرره الجرائد والمجلات التي كانت تصدر في تلك الفترة.

فالمثقف الجزائري قد شارك ضمن صفوف الحركة الوطنية، ولكن بصفة متقلبة في بعض الأحيان، فمشاركة المثقف كانت تتميز بوجوده على حواشي الإدارة والتسيير واتخاذ القرارات على مستوى الحزب الوطني: أي حزب الشعب الجزائري PPA. فحضور المثقف لم يكن يتميز بالحضور القوي على مستوى النواة المركزية لحزب الشعب. ولهذا نجد أن نشاط وحركة الأنتلجنسيا الجزائرية في تلك الفترة لم تكن سوى صورة معكوسة لهذا الوجود داخل الحركة الوطنية⁵.

ففي سنة 1939 انضم إلى صفوف الحركة الوطنية الكثير من حاملي الشهادات الجامعية وطلبة الجامعة، وتلاميذ الثانويات. لأن حزب الشعب الجزائري لا يكوّن إطارا، ولكنه يعتمد على ما ينتجه المجتمع من إطارا. فالمثقفون يصلون بواسطة تكوينهم الشخصي والخاص، حيث أن مستوياتهم ومؤهلاتهم الثقافية تدفع بهم إلى الصفوف الأولى داخل الحزب والحركة. كما يصل البعض منهم إلى مناصب قيادية على المستوى الجهوي والوطني. ويمكننا أن نذكر البعض من الكوادر التي التحقت بصفوف الحركة الوطنية مثل: دلمين دباغين، دردور (طبيب أسنان)، حاج سعيد شريف (محامي)، محفوظي (أستاذ)، مايزا (محامي)، كما نجد بعض الطلبة مثل: بن يوسف بن خدة، مصطفى، بن مهل، ... ومع وفاة بن باديس، فقدت جمعية العلماء الكثير من إطاراتها لصالح حزب الشعب مثل: شادلي المكي، سعيد زموشي ...⁶

ففي سنة 1935 نجد أحد المثقفين البارزين في تلك الفترة، وهو محمد العزيز كسوس والذي ألف كتابا صغيرا من تقديم الدكتور محمد بن جلول، وذلك محاولة منه للمشاركة في النقاش السياسي الدائر آنذاك عند رجال السياسة الفرنسيين، حيث عنون هذا الكتاب بـ "La vérité de malaise algérien". أين ينفي وينتقد وجود القومية الجزائرية ويدعم اقتراحات قانون فيولات⁷.

ولذا نجد اليوم الكثير من الباحثين المهتمين بموضوع المثقف، أن أغلبيتهم، يدعمون الرأي القائل بضعف عضوية المثقف الجزائري Organicité داخل الحركة الوطنية والمتمثلة أساسا في التيار الاستقلالي، وضعف تأثيره على القرارات التاريخية في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر مثل المطالبة بالاستقلال، وتأسيس وتنظيم حزب جماهيري، وكذلك تبني مبادئ الكفاح المسلح كوسيلة لتحقيق التحرر والاستقلال⁸.

ولذلك نجد كريم بلقاسم ينعت المثقفين، بأنهم مناضلين سياسيين من جهة، وتقنيين للريشة (Techniciens de la plume). وذلك عندما قرأ كريم بلقاسم ما كتبه الدكتور شوقي مصطفى، إذ يرد كريم بالقول: "إنه رائع مثلكم، تقني الريشة، إنكم تكتبون تماما، ما نفكر نحن فيه". فهذا التصريح مهم جدا، إذ ما رجعنا بعشرية إلى الوراء، حيث نجد الدكتور مصطفى، بجانب مصالي الحاج، على مستوى قيادة حزب الشعب⁹. فهذا ما يمكن أن يساعد على تحديد العلاقة بين المثقف والسياسي. فالمرحلة الممتدة من بدايات القرن العشرين إلى بدايات الأربعينات كان نشاط المثقف على العموم موازي للحركة الوطنية، ولذلك لم يكن انخراطه في صفوف الحركة الوطنية أي حزب الشعب تحديدا إلا في بدايات الأربعينات، وبالتالي لم يكن المبادر الأول بفكرة النضال والاستقلال، وعند اندلاع الثورة كذلك لم يكن من منظمها. فكما التحق المثقف بالحركة الوطنية متأخرا، كذلك نجده يلتحق بالثورة متأخرا، وربما هذا ما كان عاملا أساسيا في تحديد مكانته وأدواره.

2- المثقف الجزائري في فترة الثورة التحريرية:

1.2 الإعداد والتحضير للثورة:

عبر تاريخ الجزائر المعاصر، كثيرا ما يلاحظ ضعف عضوانية المثقفين Organicité الجزائريين داخل الحركة الوطنية بشقها الاستقلالي، كما يمكن ملاحظة ضعف تأثير المثقف على القرارات الهامة في فترة الاستعمار، فلم يكن المبادر الأول والمطالب باستقلال الجزائر، ولا المتبني للمبادئ التي تدعو للكفاح المسلح كوسيلة وحيدة لنيل الحرية، كما أنه لم يكن من المشاركين في إعداد الجيش السري¹⁰. فبالنسبة إلى بعض الثوريين الذين عايشوا اللحظات الأولى لاندلاع الثورة، فإنهم يعتبرون المثقفين بصفة عامة (أي طلبة الثانويات والجامعة) وحاملي الشهادات بصفة خاصة، يعتبرونهم عناصر مشكوك فيها، ولأجل ذلك لا يجب أن تسند لهم مناصب قيادية على المستوى المركزي للثورة. فالتحاق المثقفين بالثورة بقي يطرح العديد من الشكوك والتساؤلات لدى الكثير من جنود ومناضلي جيش وجهة التحرير الوطني¹¹، والذين كانوا ينتمون في معظمهم لحزب الشعب ويمثلون المنظمة الخاصة أو السرية L'OS التي كان لها السبق في إعلان الثورة في نوفمبر 1954.

إلا أن البعض الآخر من المختصين والباحثين يرون بأن الجهد الفكري قد سبق بالفعل انطلاق الرصاصة الأولى، ولو لا انتشار الفكر الذي كان يعبر عن إيديولوجية الثورة ويعمل في ذات الوقت على تعميقها باستمرار، لما استطاعت أية قوة أن تنفذ إلى الجماهير الشعبية¹². وقد ميّز فرانس فانون في كتابه "معذبو الأرض" بين ثلاثة مراحل لتطور المثقف المستعمر وهي: مرحلة الاندماج الكلي حيث راح المثقف يبحث عن مخرج من وضعية التابع عبر استيعاب ثقافة المحتل، فمرحلة الحيرة حين سعت الأنتلجنسيا التائهة إلى استذكار الماضي والاقتراب من الشعب. ثم مرحلة انتقال الأنتلجنسيا من محاولات الانصهار بالشعب والذوبان فيه إلى إيقافه وحمله على الكفاح¹³. وهذا ما يؤكد مدى عمق التفتت الذي شهدته البنية الثقافية للشعوب المستعمرة نتيجة ما لحقها من تكسير وتشويه طيلة فترة الاستعمار الطويلة.

فالتغيير أيا كان نوعه لا يحدث في المجتمع إلا إذا وقع تزويد الجماهير صاحبة التغيير بالوعي الذي يجعلها تدرك واقعها، وتؤمن بضرورة العمل من أجل تحسين ذلك الواقع أو تغييره جذريا¹⁴. فالمثقف الجزائري استطاع بفضل ما أوتي من علم وشجاعة، أن يكون قدوة وأن ينتج المادة الفكرية الكفيلة بنشر الوعي الوطني في أوساط الجماهير الشعبية، ويتكويّن طليعة بعضها فعال ومبادر وبعضها مستعد لتبني الفعل والمبادرة والالتزام بالعمل من أجل إنجاحها. ففي فترة الكفاح المسلح 1954 - 1962 يمكن أن نميز بين ثلاث أنواع من المثقفين هم: الذين بقوا من الرواد أوفياء لمبادئ النضال، والذين صنعتهم جبهة التحرير الوطني، والذين لازموا الصمت لأسباب متعددة¹⁵.

ولذا يعتبر جون بول سارتر أن المثقفين لا يمكنهم بأي حال من الأحوال " أن يلعبوا دورا حقيقيا في إعادة الطابع المدني للمجتمع إلا بقدر ما ينجحون هم أنفسهم في تجاوز أزمة الضمير العميقة التي يعيشونها بين عملهم العام وسلوكهم الخاص"¹⁶. فالميزة التي تميز بها المثقف الجزائري في مرحلة الاستعمار قد انحصرت بين غيابه الشبه الكلي على مستوى الحركة الوطنية عبر كل مراحل تطورها، وبقاءه على مستوى الفروع من المسؤوليات أثناء انخراطه في الثورة. فالحركة الوطنية الجزائرية قد رسخت فكرة الاستقلال في أوساط المجتمع، كما فرضت نفسها على المستعمر الفرنسي وواجهته بدون مثقفين، فهذا ما كان عاملا أساسيا في تحديد دور ومكانة المثقفين الذين التحقوا فيما بعد بالثورة، حيث أصبح المحك الحقيقي لاسترداد الشرعية هو المبادرة بإعلان الكفاح المسلح.

2.2 المشاركة في الثورة:

تعد سنوات بداية الخمسينات أصعب السنوات التي عرفها حزب الشعب منذ نشأته الأولى تحت اسم نجم شمال إفريقيا إلى غاية حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. حيث شهد هذا الحزب أزمة خطيرة بين أنصار مصالي الحاج وأعضاء اللجنة المركزية، وانقسم إلى فريقين، غير أن الفريق الثالث والذي وقف موقف الحياد، وحاول أن يصلح بين الفريقين المتخاصمين، والمتمثل في أعضاء المنظمة السرية الشبه عسكرية L'OS، والتي تأسست سنة 1947 كجهاز تابع للحزب مكلف بالإعداد للكفاح المسلح، هو الفريق الذي كان له السبق في إعلان الثورة.

وفي سنة 1954 من شهر مارس حيث شهدت الأزمة أوجها بين المصاليين والمركزيين، اقتنع مجموعة L'OS بأن الأزمة اتخذت أبعادا خطيرة ولا يمكن إصلاحها، وبالتالي أسسوا " اللجنة الثورية للوحدة والعمل CRUA " من نفس الشهر كمنظمة مؤقتة تحضر لإعلان الكفاح المسلح في أقرب وقت ممكن، وقد توجت في الأول من نوفمبر 1954 بإعلان الثورة عبر إعلان الفاتح من نوفمبر، وإعلان إنشاء جبهة التحرير الوطني كحزب منظم ومتبني للثورة وناطقا باسمها.

فإعلان الثورة لم يكن منتظرا، وخاصة أن مفجرتها لم يكونوا من المعروفين على مستوى قيادة حزب الشعب بشقيه المصالي والمركزي. يرجع ذلك إلى عدم احتلال الجماعة المفجرة للثورة مناصب قيادية كبيرة داخل حزب الشعب، وكذلك نظرا لتواضع مستوياتهم الدراسية نسبيا مقارنة بالقيادات السياسية لحزب

الشعب. حيث أن قادة الولايات الـ 29 بما فهم الـ 09 التاريخيين، نجد 5/3 منهم بمستويات ابتدائية، والربع ¼ بمستوى ثانوي، و13,8% حاصلين على مستويات جامعية. في حين لا نجد من بينهم ولا أي واحد، كما أن الثلث منهم قد اجتاز الابتدائي. فلأجل هذا لا يمكن مقارنة هذه المجموعة بالجماهير الشعبية الأخرى، والتي كانت في معظمها أمية¹⁷.

فبعد سنة 1955 و1956. انضم الكثير من الإطارات إلى جبهة وجيش التحرير الوطني، والمتمثلون أساسا في أعضاء حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الذي كان يرأسه فرحات عباس، وبعض من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولكن ما يمكن ملاحظته هو أن الملتحقين بجبهة التحرير الوطني من أصحاب البيان وجمعية العلماء يعد ضعيفا نسبيا مقارنة بعدد المركزين، وهذا ما كان سببا مباشرا في تحديد وضعيات ومكانة الملتحقين بالثورة، حيث أن علاقات القوة كانت تحدد على أساس المبادرة بإعلان قيام الثورة، وهذا ما لم يسمح للملتحقين مؤخرا بالثورة أن يلعبوا الأدوار الأولى على مستوى القيادة¹⁸.

ويمكن أن نميز بين ثلاث عينات أو مجموعات والتي كانت على مستوى قيادة جبهة وجيش التحرير الوطني، وهذا طيلة المدة التي استغرقتها حرب التحرير فنجد: العينة الأولى والتي بها 29 ضابطا وقائدا للولاية. أما العينة الثانية فتضم 87 شخصا وهم المتواجدين على مستوى هياكل القيادة من لجنة التنسيق والتنفيذ CCE، وأعضاء الحكومة المؤقتة GPRA، والمجلس الوطني للثورة CNRA، كما تضم مسيري الفيدرالية الجزائرية بفرنسا، وذلك من سنة 1954 حتى ربيع 1961. أما المجموعة الثالثة والتي تتكون من 91 إطارا حتى بداية 1962 والمتمثلة في رؤساء ديوان، وأمناء عامون وموظفون سامون في وزارات الحكومة المؤقتة، كما تضم أيضا مدراء بمصالح جيش التحرير، وكذلك مسؤولو هيئات ومنظمات شعبية، كما تحتوي هذه المجموعة على شخصيات هامة والتي كانت تمثل الجزائر بالخارج¹⁹.

ومن هنا يمكننا التمييز بين رجال 1954 والملتحقين المتأخرين بالثورة أين تتقاطع وتلتقي فيما بين العسكريين الأقل تكويننا - والمدنيين الأكثر تكويننا سياسيا: فنجد في العينة التي تضم 87 عضوا، 31 سياسيا 35,6% و56 ضابطا ما يقارب 3/2، والذين كانوا يتحكمون في الهياكل والهيئات القيادية للثورة، حتى ولو أن البعض منهم (الضباط) لم يكونوا يتواجدون باستمرار في الميدان وساحة المعارك. ففي الربيع من عام 1961، نجد أن 24 ضابطا من 56 أي 42,8% كانوا متواجدين خارج الجزائر²⁰.

فكما هو معروف اليوم، والأرشيف يشهد على ذلك، أنه عندما دعت جبهة وجيش التحرير الوطني سنة 1956، وطلبت من الطلبة وتلاميذ الثانوي بالقسم النهائي الاختيار بين منحة دراسة في الخارج أو الالتحاق بصفوف المجاهدين، فالبعض فضل المنحة، في حين أن البعض الآخر من الطلبة والتلاميذ المضربين فضلوا الالتحاق بالثورة ومغادرة مقاعد الدراسة، بدون تردد داخل الجزائر، كما خارجها بتونس والمغرب وكذلك بأوروبا وذلك على مستوى تأطير المناضلين الناشطين، والذين كانوا مهتمين من طرف العدو الفرنسي وخاصة الجالية الجزائرية المتواجدة بفرنسا آنذاك²¹.

فالتحاقهم بصفوف جبهة وجيش التحرير لم يكن إلزاميا ولا جماعيا، بل كان إراديا بالنسبة للعناصر التي التحقت بالثورة. حيث نجد أن جبهة التحرير الوطني كانت تعتمد أساسا على نوعية الطلبة المنخرطين في الثورة أكثر مما تركز على العدد. فبالنسبة لعبدان رمضان والذي كان يمثل المنسق الوطني للثورة، وقائد المنطقة الحرة للجزائر العاصمة ومساعديه كل من: بن يوسف بن خدة وسعد دحلب، كان الغرض من إدماج المثقف داخل صفوف الثورة هو رسم أفاق تأسيس الدولة الجزائرية المستقلة²². وهذا ما يبرز ويمكن ملاحظته عبر جميع هياكل وهيئات جبهة وجيش التحرير الوطنيين، فقد تواجد المثقفون (حاملي الشهادات الجامعية والثانوية) داخل هذه الهياكل وتقلدوا الكثير من المناصب والمهام ولكن بدرجة أقل داخل المراكز القيادية العليا للثورة ما جعلهم بعدين عن اتخاذ القرارات الهامة، والتي كانت من احتكار المناضلين الأوائل في حزب الشعب ومفجري الثورة.

فاستجابة المثقفين لنداء جبهة التحرير كان تطوعيا وذلك نابع من تصوراتهم الفكرية والتي أملت عليهم هذا الالتحاق، فقد استجابوا وبكثافة للأمر، الذي كان يدعو إلى الإضراب ووضعوا أنفسهم في خدمة الثورة. حيث التحق بعضهم بالمجاهدين المتواجدين بساحة المعركة بالداخل، والبعض الآخر التحق بالمنظمات التابعة لجبهة التحرير بالخارج، كما التحق بعضهم بالمؤسسات الجامعية الأجنبية، وإلى جانب قيادات ومسؤولي جبهة التحرير. ولكن وعلى الرغم من تواجدهم على مقربة من مركز القيادة، إلا أنهم كانوا مجردين من سلطة اتخاذ القرارات وتوجيه الثورة²³.

فالطلبة الجزائريون لبوا نداء الإضراب الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني، وذلك من أجل المساهمة في الثورة التحريرية، لقد انضموا إلى صفوف المجاهدين بالداخل، كما التحقوا بالمؤسسات الجامعية بالخارج أين كلفوا بمهام كمبروثين مكلفين من طرف قيادة جبهة التحرير الوطني. ولكن ما يجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من تواجد المثقفين بجانب قيادة جبهة التحرير إلا أنهم بقوا عاجزين عن إبداء أي مبادرة ولا نية لوضع أي تغييرات ومحاولة فرضها، ولا لاقتراح أي حلول ذات بعد كبير²⁴.

إلا أن البعض من المهتمين بشأن المثقفين في الجزائر يذهبون إلى تأكيد دور المثقف في صفوف الحركة الوطنية قبل الثورة وأثناءها. حيث يؤكد أحدهم ذلك إذ يستشهد بمفدي زكريا بالقول: "إن مفدي زكريا لم يكن شاعرا وكفى بل واحد من جنود القلم الذين لا تقتصر مساهماتهم في الكفاح على الكتابة فقط، لكنه كان من اللحظات الأولى لاندلاع الثورة شريكا في اتخاذ القرار، ومسؤولا يؤخذ رأيه بعين الاعتبار في المستوى القيادي"²⁵. كما يستدل نفس الكاتب بمثقف آخر وهو مالك حداد، حيث قال: "سيظل التاريخ يحفظ لمالك حداد بأنه من المثقفين القلائل الذين تكيفوا بسرعة مع المعطيات الثورية التي جاءت بها جبهة التحرير الوطني، وراحوا من ذلك المنطلق يقدمون الحلول لمختلف القضايا الثقافية التي تتحكم معالجتها في تخليص المجتمع الجزائري نهائيا من السيطرة الأجنبية"²⁶. إلا أن هذا الرأي يبدوا أنه مبالغ فيه بعض الشيء، إذ أن الكاتب يناقض نفسه حين يقول بأن مالك حداد من المثقفين القلائل، إذ أنه يؤكد ضعف مساهمة المثقف في اتخاذ زمام القيادة والقرار.

3.2 المثقف ومكانته داخل جبهة وجيش التحرير الوطني:

في الثامن عشر من ماي 1956، وباتفاق مع عبان رمضان، قام أعضاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA، المدعومين من طرف لمين دباغين وعلاوة بن بطوش ... بتنظيم لقاء، حيث تم الإعلان عن الدخول في إضراب عام وغير محدود عن الدراسة والامتحانات والانضمام إلى صفوف جبهة وجيش التحرير. ففي التصريح الذي صاحب الإعلان، قام اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بذكر أسماء الطلبة المغتالين من طرف الشرطة الاستعمارية، من بينهم: زور بلقاسم، والدكتور بن زرجب، وبعض تلامذة المتوسطات، كما ذكروا حكم الإعدام الذي لاقاه رضا حوحو، كما ذكروا في بيانهم أسماء العديد من الطلبة الذين تعرضوا للتوقيفات والسجن والتعذيب. وقد انتهى الإعلان بالتأكيد على ضرورة مغادرة وإخلاء مقاعد الدراسة بالجامعة والالتحاق بالكفاح المسلح لمساندة الجماهير الشعبية تحت قيادة جبهة التحرير الوطني وجيشها للتحرير²⁷.

فهذا تكون الثورة وقيادتها في جبهة وجيش التحرير قد تزودت بفتنة معتبرة من المثقفين من خلال التحاقهم بها، فتوزعوا عبر جميع الهياكل والهيئات الممثلة للثورة. وما يمكن أن يلفت الانتباه هو أن مجموعة الـ 87 عضوا والذين كانوا يمثلون الهيئات القيادية في جانبها السياسي، من أعضاء الحكومة المؤقتة والمجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ، كان مستواهم الدراسي مرتفعا مقارنة بمجموعة الـ 29 والذين كانوا يمثلون قادة الولايات أي العسكريين، فمجموعة الـ 87 عضوا حتى وإن كانت تضم اثنين غير متعلمين أي 2,47 %، فإنها على العموم تتميز بارتفاع المستوى الدراسي لأعضائها مقارنة بمجموعة الـ 29. كما نجد أن المتوقفين عن الدراسة في المستوى الابتدائي تعد نسبهم قليلة، حيث يمثلون أقل من النصف، أي 45,35 %. كما نجد أن الربع 25% من طلبة الثانوية، وأكثر من ربع الأعضاء لهم مستويات جامعية²⁸.

وقد نفسر هذا الارتفاع في المستوى الدراسي إلى إرجاعه إلى الالتحاق الذي شهدته جبهة التحرير الوطني من طرف الكثير من المثقفين والذين ينتمون إلى حزب البيان وجمعية العلماء والمركزيين، وقد تعزز عدد المتعلمين أكثر عند انضمام الكثير من الطلبة للثورة لتلبية للنداء الذي وجهته جبهة التحرير بالإضراب عن الدراسة.

أما فيما يخص مجموعة الـ 91 والتي تتمثل في إطارات الحكومة المؤقتة، والمنظمات الشعبية والسفراء، والتي دورها كانت تخضع لأوامر القيادة العليا. والشيء المميز لهذه المجموعة هو وجود فئة معتبرة من أعضائها مدنيين وذوي مستويات عليا، حيث أن النصف منهم ذوي مستويات جامعية، والربع 25 % ذات مستويات ثانوية، والخمس 20 % منهم لا يتجاوزون المرحلة الابتدائية من التعليم. فهذه الميزات ناتجة أساسا في ضعف تواجد العسكريين حيث كانوا يمثلون 22% فقط من هذه المجموعة، إذ يرجع هذا إلى حاجة جبهة التحرير الوطني بصفحتها كدولة في طريق النشأة، وهو ما يحتم عليها إيجاد عناصر مؤهلة علميا

ومهنيا وتكليفهم بمهام ووظائف تقنية، والتي كانت تتطلب تكويننا علميا ومعرفيا، وهو ما يخول لها القيام بمهام داخل صفوف جبهة التحرير وتمثيلها دوليا²⁹.

فمجموعة الـ 91 تحتل في مجملها درجة عالية نسبيا على المستوى السوسيو مهني. فالمن التي كانوا يمتنونها كانت مرتبطة أصلا بالأدوار المتعلقة بالتنفيذ على أعلى المستويات والتي من أجلها تم تعيينهم. حيث أن أكثر من العشر 10/1 هم مناضلون في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، و فقط 7,5% نجدهم من فئة العمال الأجراء عند الخواص، أما فئة الفلاحين فهي غير موجودة داخل هذه المجموعة. أما فئات الملاك الصغار والتجار وممتني الأعمال الحرة فيمثلون 4,3% فقط. أما العسكريين القدامى ومعلمي اللغة الفرنسية والموظفين فهم يمثلون نسبة 20,5% هذه المرة. أما معلمي اللغة العربية فهم متواجدون بنسبة 4,3%. كما تضم هذه المجموعة ثلاثة مهندسين 3,2%، وأربعة كتاب وصحافيين 4,3% من بينهم كاتب ياسين ومالك حداد، أما الطلبة والذين لم تكن لديهم أية مهنة فيمثلون 9,7%، كما نجد 19 عضوا يمثلون نسبة 20,4% يمتنون أعمال حرة³⁰. فالملاحظ أن هذه المجموعة تضم نسبة كبيرة من المتعلمين والمثقفين والذين كانوا في معظمهم مدنيين، وذلك ما تؤكد النسب والأرقام، كما نلاحظ الحضور الضعيف جدا للعسكريين والمزارعين والذين كانوا يتميزون بمستويات دراسية ضعيفة عموما وانعدام المستوى الدراسي بالنسبة لبعض العناصر منهم.

فمجموعة الـ 91 عضوا هي فئة الأشخاص الذين ينضون تحت القيادة بصفتهم أشخاص ثانويون، والمتكونين أساسا من وكلاء تنفيذ، وبرجوازيين وتكنوقراطيين، فقد كانوا يمثلون النخبة المؤهلة والتميزة بالكفاءة والتي عملت السلطة على توظيفهم لبناء الدولة الجزائرية التي كانت في بداية نشأتها. هذه الفئة المثقفة التي كانت مجردة من اتخاذ أي قرارات ومن أي مبادرة سياسية، فعلى أية حال لم تكن تمتلك حق احتكار الكلمة الأخيرة، لأنها لم تستدعي وتوظف من أجل هذا. فالخاصة همشت على مستوى القيادة السياسية للمجتمع الجزائري منذ الحرب العالمية الثانية، ولم تعد قادرة على إيجاد مواقع لها داخل القيادة السياسية من أجل اتخاذ القرار، إنها ممثلة ثانويا على مستوى إشارات جبهة التحرير، ومن هنا يمكننا الرجوع إلى دراسة الانتماءات السياسية الأولى لهذه الإطارات كي نستطيع تحديد الوجه الجانبي لهؤلاء الإطارات³¹.

فعندما تم تعيين الدكتور لمين دباغين من قبل مؤتمر الصومام -ضد بن بلة ومحساس- بصفته المسؤول الوحيد عن وفد الخارج لجبهة التحرير الوطني، كان ذلك من أجل تكليفه بمهام لوجيستية، وبالدرجة الأولى من أجل إبعاد مجموعة محساس التي كانت تحت إمرة أحمد بن بلة وقد همش لمين دباغين في الفترة التي كانت فيها القيادة متمركزة في الباءات الثلاثة وهم: كريم بلقاسم، لخضر بن طوبال، وعبد الحفيظ بوصوف، وفي سنة 1960، عين ممثلا لوفد جبهة التحرير الوطني بأنقرة (تركيا)³².

كما يذهب البعض إلى القول بأن مفدي زكريا قد نظم قصيدة "اللّهب المقدس" مكرها، وأن عبان رمضان استعمل معه العنف لإرغامه على ذلك. إلا أن البعض الآخر يرفض هذا ويعتبر أن العقل السليم يرفض

هذا الادعاء مطلقاً.³³ أما مالك حداد فقد وضع نفسه في خدمة جبهة التحرير الوطني يمثلها في التظاهرات الثقافية الدولية، فرغم رضا المسؤولين على نتائج نشاطه، فإنه لم يكن مقتنعا بما كان يقدمه للوطن، إذ يعبر على ذلك بقوله: "إنني أتجول بينما الآخرون يقاومون، بينما هذا ألقى عليه القبض، وذلك عذب، وذلك اختطف ولم يعد يسمع له خبر".³⁴ إلا أننا يمكن أن نكتشف من هذه الشهادة أن المثقف لم يحتل المراكز القيادية داخل جبهة التحرير، وبقي دوره محصوراً وثانويًا على مستوى القيادة، كما أن مصدر شرعية السلطة كلن مقتصرًا على حمل السلاح.

وتعتبر قضية لابلويت la Bleuit أخطر حادثة يتعرض لها المثقفون، وذلك بالولاية الثالثة التاريخية، حيث قام العقيد الفرنسي Godard جودارد بإيهام جيش التحرير بأن المثقفين الذين التحقوا بالولاية الثالثة هم مدعومين من طرف فرنسا من أجل ذلك تم انضمامهم لجيش التحرير الوطني لاختراقه من الداخل، وقد قام العقيد عميروش بفتح تحقيق، وتم تعذيب العديد من الطلبة والمثقفين أثناء التحقيق، حيث اعتبر العقيد عميروش أن جميع الطلبة والمثقفين الذين التحقوا بالولاية الثالثة خونة مندسين داخل جيش التحرير الوطني. ومن هنا أصبحت الأمية هي الضامن الوحيد للنجاة من العقاب والموت، وقد قامت لجان التحقيق ومكافحة الجوسسة والتي تم إنشاءها بالولايات بعد الاجتماع المنعقد في ديسمبر 1958، حيث تم تنفيذ حكم الإعدام في حق العديد من الطلبة والمثقفين، وقد جاء في التقرير الذي قام بإعداده كل من سي أحمد وسي صالح حصيلة ثقيلة من الطلبة والمثقفين الذين تم إعدامهم بعد التحقيق والتعذيب الذي تعرضوا له، حيث جاء في التقرير المكتوب في 17 أوت 1959 أن 486 شخصا قد تم التحقيق معهم، ثم حوكموا وتم تنفيذ الإعدام في حقهم، فالفائمة تضم أربعة برتبة ملازم أول، وخمسة برتبة ملازم، و 11 مرشحا Aspirants، 19 مساعد Adjudants، و35 برتبة رقيب أول، و409 من الجنود³⁵

ونجد بعد الاستقلال الاتحاد العام للطلبة الجزائريين UGEMA، يقوم بتقييم ونقد ذاتي للاتحاد حيث يقول بيان صادر عن الاتحاد أنه وبالرغم من الإضراب الذي قام به الطلبة الجزائريون في ماي 1956، إلا أن الاتحاد لم يكن له الدور الكبير والقيادي داخل الثورة التحريرية، وأن الطلبة لم يقوموا بدورهم كما كان يجب أن يكون في الصفوف الأولى من أجل الكفاح المسلح، وأن الطلبة كانوا على هامش المسألة التي عرفتها الجزائر خلال مرحلة حرب التحرير³⁶. وهذا ما يؤكد أن الشرعية التي اعتمدت عليها قيادة الثورة كانت مرتبطة بميدان القتال والمعركة، وأن المعيار الأولي والأساسي هو الحضور في ساحة القتال.

3-مرحلة الاستقلال:

يعتبر اليوم الخامس من جويلية 1962، أعظم حدث تاريخي تشهده الجزائر في تاريخها الحديث، كما أن هذا التاريخ أي يوم إعلان الاستقلال ما هو إلا نتيجة حتمية ومنطقية لإعلان الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954، فبعد الاستقلال مباشرة باشرت السلطة والقيادة السياسية في الجزائر في عملية بناء وتأسيس الدولة الوطنية الجزائرية، وذلك من أجل استدراك التأخر الكبير والفراغ الذي عرفه المجتمع الجزائري من خلال التكسير والتفتت الذي عرفته البنى الثقافية والاقتصادية والسياسية من جراء

الاستعمار ، ولذا لجأت القيادة السياسية في الجزائر بعد الاستقلال لتسخير وتجنيد كل القوى والطاقات المادية منها والبشرية لردم الهوة السحيقة التي تركها الاستعمار، ومن الطاقات البشرية التي لا يمكن لأي دولة أو مجتمع أن يستغني عن إسهامها ومشاركتها في التنظير والتحضير لأي مشروع مجتمعي، نجد فئة المثقفين، ومن هنا يمكننا التساؤل حول وضعية ومكانة المثقفين داخل المجتمع في هذه الفترة، وعن علاقة المثقف بالدولة والحزب والسياسة في جزائر الاستقلال.

1-3 المثقف في فترة بناء الدولة الوطنية:

كل المعطيات المتوفرة حول الأنتلجنسيا المغربية لا تنفي أنها كانت شقية خلال مرحلة الاستعمار الاستعماري وحزينة خلال مرحلة البناء الوطني، فلقد كانت تقديس أفكار (فولتير) و(روسو) وتطالب بالاندماج والتماثل وهذا شقاء لا نظير له! كما كانت متفاعلة ومنفعلة مع الأحادية الواحدة مسخرة قلمها وخطها لسيف السلطان وهذا حزن لا مثيل له!³⁷ ويرى فرانس فانون بأن المثقفين في الدولة المستعمرة قد انضموا إلى صفوف الحزب عشية الاستقلال مؤكدون بسلوكهم لاحقا أن هذا الانضمام ليس له هدف آخر سوى انتزاع قطعة من الكعكة بعد الاستقلال³⁸، فإذا كان المثقفون الجزائريون يشتركون في العديد من المميزات والخصائص التي يتميز بها جميع المثقفين من البلاد المستعمرة عامة، الأنتلجنسيا المغربية خاصة، فما هي الفروق والميزات التي تميز المثقفين الجزائريين عن أقرانهم في باقي الدول المغربية والمستعمرة عموما؟

ويرى بعض المتابعين والمهتمين بموضوع المثقف في الجزائر، أن المثقفين معقدون تجاه الثورة لأن مشاركتهم كجنود كانت ضعيفة لأجل ذلك فهم يتجنبون الخوض في الموضوع، وهناك من يعتقد أن سبب العقدة يكمن في كون الثورة لم تعطيهم كل ثقتها أثناء مرحلة الكفاح المسلح، بل أن عددا منهم أعدم في بعض المناطق بتهمة الخيانة خاصة، ثم تحولت التهمة، مع مرور الأيام، إلى عجز وجبن لصيقيين بالمثقف مجردانه من القدرة على النضال والمقاومة.

في حين يرى البعض الآخر أن هذه المزاعم لا أساس لها من الصحة، لأن التغيير أيا كان نوعه لا يحدث في المجتمع إلا إذا وقع تزويد الجماهير صاحبة التغيير بوعي يجعلها تدرك واقعها، وتؤمن بضرورة العمل من أجل تحسين ذلك الواقع أو تغييره جذريا³⁹، ومن خلال هذين الرأيين نسعى لمعرفة مدى صدق كل رأي، كي نستطيع أن نحدد ما للمثقف الجزائري وما عليه.

ومن الشخصيات المثقفة البارزة في الجزائر نجد فرحات عباس، والذي عرف مسيرة نضالية طويلة إبان الحقبة الاستعمارية، إذ انتقل من المطالبة بالمساواة والاندماج منذ نهاية العشرينيات حتى بداية الأربعينيات إلى الاعتدال في مواقفه والتغيير النسبي في ظروفه وأفكاره، حتى انتهى به الأمر إلى ترأس أول حكومة مؤقتة جزائرية في سبتمبر 1958، وترأسه المجلس التأسيسي مباشرة بعد الاستقلال ليستقيل من منصبه هذا في سنة 1963، ويكون السبب الأول والرئيسي لهذه الاستقالة هو الاختلاف في الرؤى

والتعارض في المواقف بينه وبين القيادة التي استحوذت على السلطة غداة الاستقلال وهذا ما جعله في صف المعارضين للسلطة والنظام في الجزائر.

فقد عاد فرحات عباس بعد 1962 في الجزائر المستقلة إلى (مثاليته الجمهورية الأصيلة)، ولكن الديناميكية الاجتماعية والممثلة في حركة ونشاط التسيير الذاتي في سنتي 62 و63 قد تجاوزته. إنها مرحلة (الاشتراكية) على مقاس (فيدال كاسترو) التي عرفتها الدولة حديثة الاستقلال، ففي سنة 1963 استقال فرحات عباس من رئاسته للمجلس التأسيسي وذلك لاحتجازه على المناهج غير الديمقراطية التي اتبعها أحمد بن بلة والذي كان يسعى لإرساء ركائز الحزب - الدولة، وتم إيقافه في 1964 حيث يقول في هذا الشأن: "لقد تم إيقافهم لأنهم لم يرضوا أن أعبّر علنا عن رفضي للمشاركة في (بلشفة Soviétisation أي جعل الجزائر على النموذج السوفيتي) بلدي، إنها إيديولوجية طبقت ضد إرادة الشعب الجزائري". ولم يغير فرحات عباس رأيه وموقفه، وقد كان متعلقا جدا بقيم الديمقراطية مع احتفاظه بوعيه الاجتماعي⁴⁰. وغداة الاستقلال عمدت السلطة السياسية في الجزائر إلى بذل مجهودات كبيرة في مجال التعليم وتعميمه على جميع فئات المجتمع، كما عملت على بعث الجامعة الجزائرية، حيث اعتمدت في الأول على الأساتذة الذين كانوا يدرّسون بالجامعات الأوروبية وخاصة الفرنسية منها، وكانوا في غالبيتهم أساتذة جاءوا من الدول الاستعمارية، وبعض الأساتذة الجامعيين الذين ينتمون إلى أسر من الأقدام السوداء الذين بقوا في الجزائر بعد الاستقلال. إلا أن السلطة السياسية في الجزائر حديثة الاستقلال عملت على سد الفراغ الذي تركه الأساتذة الفرنسيون الذين غادروا جامعة الجزائر بعد الاستقلال، حيث استعانت بالأساتذة المتعاونين والذين كانوا في معظمهم مثقفون شيوعيون والذين التحقوا بالجامعة الجزائرية كقناعة منهم والتزام، ومن بينهم البروفسور روبرت سوفوراي Rober Sauferey والمسيحي الليبرالي أندري ماندوز André Mandouse الذي يعتبر أول مدير للتعليم العالي بالجزائر المستقلة⁴¹ وقد خلفه على رأس مديرية التعليم العالي الأستاذ مالك بن نبي من 1964 إلى غاية استقالته سنة 1967.

فالتبني الاشتراكي كخيار وحيد وأوحد من طرف السلطة السياسية بعد الاستقلال، وضع المثقفين الجزائريين آنذاك والذين لم يكونوا بالضرورة يؤمنون بنفس المبادئ والأفكار التي أنتهجتها السلطة السياسية أمام خيارين اثنين إما التخلي عن الأفكار والمبادئ والاندماج في النهج الذي وضعت له السلطة، وإما التثبيت بالمبادئ المخالفة للمبادئ السائدة، وبالتالي العزلة والتهميش، ولم تكن هذه الوضعية خاصة بوضعية المثقف الجزائري فقط، وإنما عرفتها العديد من الدول التي خرجت حديثا من الاستعمار، حيث يقول هشام شرابي: "في الصمت الرهيب الذي أعقب التنظيم اللاديمقراطي للسلطة فإن المثقف العربي محكوم عليه إما بالمحاباة أو النفي، وإما بالدعارة أو العزلة"⁴².

فهذه الوضعية التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال على غرار باقي الدول المستعمرة والتي حتمت على المثقف أن يختار بين التثبيت بالمبادئ والبقاء خارج السرب، وإما التخلي عن القناعات الخاصة

والانضمام إلى القافلة، "ففي الجزائر مثلا، أصبحت السلطة السياسية بعد نيل الاستقلال محاطة بفئة من الأنتلجنسيا الإدارية تاجرت صراحة بمفهوم خدمة الدولة وهيبة الموظف السامي"⁴³.
وعوض أن يحاول المثقف أن يجبر الكسر التاريخي بالعودة إلى القراءة الموضوعية للحادثة التاريخية المغيبة، راح يشارك في إضافة المزيد من الغموض على التراكمات الاجتماعية الناجمة عن التطبيقات المستعجلة للنماذج الأيديولوجية المستوردة. ولذلك فإننا نجد طوال فترة حكم الحزب الواحد تأطير للمجال الثقافي من طرف المجال السياسي، فالمثقف الجزائري عموما ظل تابعا للسياسي، وهو في أحسن الأحوال شريكا غير متكافئ. ومن هنا كان لزاما على المثقف في هذه الحالة أن ينتج خطابات تبرر وتعطي مشروعية لاختيارات رجل السياسة⁴⁴ وهذا ما يمكن أن نجده في العديد من الكتابات الروائية، والبرامج التعليمية وفي مجال السينما والمسرح وبعض الكتابات النظرية التي كانت تدافع عن النهج والنموذج الاشتراكي والأيديولوجية الحاملة له.

أما المثقفين الذين بقوا خارج السرب ولم يدخلوا بيت الطاعة، فقد عانوا من استراتيجية التغييب، والتي شاركت أي هذه الاستراتيجية في صناعة الهوية المفصلية التي عادة ما كانت تفصل المثقف المروض عن الوجه الآخر للجذور التاريخية التي يتشكل منها المجتمع الجزائري. ولذلك كانت كل القراءات التي حاولت أن تبرر لهذه الهوية قراءات ميكانيكية خاضعة لإيديولوجية المثقف وهو يذهب أبعد من السلطة في ممارسة سلطة تغييب هذا الوجه الآخر⁴⁵.

فعبّر طول هذه المرحلة من 62 حتى 1988 وجد المثقفين أنفسهم خارج المجال، على هامش الدولة والمجتمع، لقد بقوا متواجدين على شكل أفراد، ولم يستطيعوا أن يتكلموا في مجموعة ولم يكونوا مرتبطين حقا بمدارس فكرية ولا بتقاليد طويلة وعريقة، إنهم انعزاليون أكثر من استمرازيون أي لم يكونوا حاملين لفكر متوارث ومستند على مرجعية راسخة، كما لم يكونوا مؤسسين لتيارات ومدارس فكرية ومعرفية، ومن أبرزهم: مصطفى الأشرف، مالك بن نبي، كاتب ياسين، مولود معمري، ومحمد حربي، لقد بدأوا يكتبون وينشرون، ويأخذون مواقع لهم، فقبل الاستقلال استطاعوا أن يبلوروا أفكارا لهم، فكتاباتهم وإسهاماتهم الفكرية، كانت مدفوعة بالتيار التاريخي المتنامي للقومية والوطنية، لقد انخرطوا في هذا التيار وأسهموا فيه. اما بعد الاستقلال فوجدوا أنفسهم في وضعية معقدة، في قلب القومية والوطنية والأمة والتي عادت من بعيد، على هامش الدولة، والتي اعتمدت على الطابع الشمولي لتجنب الاختناق والغرق، كما وجد المثقف نفسه، وبطريقة معينة على هامش المجتمع الذي عانى وتأثر تحت وضع الاستعمار⁴⁶.

2-3 المثقف في مرحلة حكم الحزب الواحد:

بعد الاستقلال مباشرة شرعت السلطة السياسية في الجزائر في إرساء ركائز النموذج الاشتراكي على غرار العديد من الدول التي استقلت عن الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، حيث تبنت الدول المنعقدة النهج الاشتراكي على المقاس السوفياتي والصيني، وما يميز هذا النموذج هو الطابع الشمولي، كما سعت السلطة

السياسية في الجزائر لتثبيت أسس أركان الدولة-الحزب بقيادة الحزب الواحد والإيديولوجية الواحدة والتي لا تقبل التضاييف ولا التعايش مع الرؤى والأفكار المختلفة عنها. ففي ظل هذه الوضعية كيف تعامل وتفاعل المثقف مع هذه المرحلة من تاريخ الجزائر المعاصر؟ وما موقفه من كل هذا؟

فالأسس الأيديولوجية التي تأسست عليها الدولة الجزائرية بعد الاستقلال والتي تتمثل في الوطنية، والاشتراكية والإسلام، كانت لا تسمح بأن تضاييف الرؤى والتصورات والمبادئ التي تختلف وتتعارض معها. فالمزج بين الأسس الثلاثة التي اعتمدها السلطة السياسية في الجزائر كانت تعتمد على تسخير جميع القوى والطاقات لإنجاحها، ومن بين هذه القوى فئة المثقفين، والتي وجدت نفسها أمام هذا الرهان، فإما الاندماج وإما الرفض وبالتالي الإقصاء. "ويشير الرئيس هواري بومدين في نوفمبر 1974 إلى أن المثقفين في المدن تحولوا إلى بيروقراطيين وبرجوازيين، وأنهم يديرون ظهورهم للثورة ويسرون على طريق الانحراف وأحيانا الخيانة. وإذا كان المثقفون بالأمس خصوصاً متحمسين للاستعمار، فإنهم اليوم ببساطة أخذوا مكانه، فبمجرد أن ينهي الطالب، الذي يجيش شباباً ثورياً، دراسته الجامعية حتى يندمج في مجتمع المدن الاستهلاكي"⁴⁷.

وعلى أساس هذا القول يمكننا الاستدلال على استمرارية اتهام المثقفين وتحسيسهم بالذنب، حيث بقي المثقف في موضع الريبة والشك، فمنهم من اختار أن يسخر قلمه وخطبه للدفاع عن خيارات السلطة وتوجهاتها، حتى وإن لم يكن مقتنعاً بذلك، ومنهم من رفض ذلك وأصر على البقاء خارج مظلة الحزب والدولة وبالتالي حكم على نفسه بالتميش والإقصاء. فطوال مرحلة حكم الحزب الواحد بالجزائر والذي كان يمارس رقابته المطلقة على كل القطاعات، ظل الإنتاج الثقافي مراقباً من طرف السلطة مما أدى إلى منع الكثير من المثقفين من إبداء الرأي والتعبير بحرية، وهذا بقوا مهمشين معزولين⁴⁸.

وأمام هذه الوضعية الصعبة، والرقابة التي كانت تمارسها السلطة على كل الإنتاج الثقافي والفكري والفني، لجأ البعض من المثقفين وخاصة الروائيين منهم إلى التخفي وراء الكتابات الروائية واتخاذ شخصية المثقف البطل المحوري في روايته. إذ لا يختلف دور المثقف في الواقع عن دور المثقف في الرواية، ذلك أن أول الأقنعة التي يجب أن يتقنع بها الروائي في استعمال الفضاء السردي من أجل تقديم الرؤية الإيديولوجية عن طريق البطل المثقف. فمن الناحية المبدئية، لا يختلف دور المثقف وهو يمارس دوره على مستوى الواقع عن دور المثقف وهو يمارس نفس الدور على مستوى السرد. وربما كان دور الثاني أكثر أهمية بالنسبة للروائي، لأنه يضمن له تحقيق كل الأحلام التي لم يستطع تحقيقها على مستوى الواقع، بما فيها الخيبات السياسية والمكبوتات الإيديولوجية المتعلقة أساساً بحرية الجهر بالمواقف والدفاع عنها⁴⁹.

فالدور الذي كان يقوم به الروائي كان يضمن له تمرير الرؤية الإيديولوجية تمريراً سلساً يضمن عنصر الصراع والمواجهة والبوح بالمكبوتات الإيديولوجية التي يقوم بها البطل المثقف على مستوى السرد، بينما يتخفى الروائي (السارد) في طابع التموقع الفوقي بالمفهوم الغرامشي. ذلك أن هذا المثقف ظل حضوره

محايتا لحضور الرواية. فمعظم النصوص الروائية الجزائرية تتخذ من شخصية المثقف محورا تدور حوله مختلف الأحداث⁵⁰.

وإذا ما تتبعنا مسيرة المثقف الجزائري منذ الاستقلال وخاصة منذ بداية السبعينات نجده أنه " كان المبشر بالتغيير القادم في رواية السبعينات، وهو المنتقد لواقعه والناقد للتاريخ والهوية في رواية الثمانينيات، وهو المأزوم والمهزوم تحت وطأة الواقع في رواية التسعينيات من القرن العشرين"⁵¹.

4-فترة التعددية السياسية والإعلامية والعنف المسلح:

يعد تاريخ 05 أكتوبر 1988، تاريخا فاصلا في مسيرة المجتمع والدولة الجزائرية، فبعد تفاقم الأزمة الاقتصادية من جراء انخفاض أسعار البترول في 1986 إلى مستوياتها الدنيا، أصبحت الدولة عاجزة عن سد النفقات والمصاريف، وشرعت في رفع يدها عن دعم أسعار المواد الاستهلاكية، كما بدأت ظاهرة الندرة في المواد والارتفاع المتزايد لنسبة البطالة، فإذا كانت هذه بعض بوادر الأزمة في جانبها الاقتصادي، فما هي الإرهاسات الأولى لبداية الأزمة في جانبها السياسي والإيديولوجي؟

أما فيما يخص البعد السياسي والإيديولوجي فيبدو أنه ينقسم إلى قسمين أو إطارين فالإطار الأول والذي يعتبر داخلي والذي يتمثل في الصراع القائم بين الزمر والكتل الموجودة في هرم السلطة، والذي يتمثل خاصة في الصراع بين المحافظين والإصلاحيين، مما أوصل إلى الانسداد وضيق الأفق. أما الإطار الثاني والذي يتمثل في السياق العام العالمي وخاصة على مستوى الإيديولوجي، حيث شهدت هذه الفترة انهيار المعسكر الشرقي وتفكك الاتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين. فقد مست هذه الأزمة كل الدول والأنظمة التي كانت تبني النهج الاشتراكي، ومن ضمن هذه الأنظمة، النظام والسلطة في الجزائر حيث لا يمكن أن تكون بمنأى عما يحدث من تغيرات في العالم. وبهذا تكون الجزائر قد دخلت مرحلة جديدة، وهي مرحلة التعددية الحزبية، السياسية، والصحفية. ومن هنا يمكننا التساؤل حول وضعية ودور المثقف في هذه المرحلة. فما موقع المثقف من هذه التغيرات الحاصلة في الجزائر، وهل كان له دور في هذه العملية؟

فالحركة الشعبية والتي رافقها المناخ السياسي الجديد، قد لقيت ارتياحا كبيرا من قبل غالبية المثقفين من الجامعيين والإعلاميين على وجه الخصوص، والذين لطالما ناضلوا بكل شجاعة من أجل هذا، حيث نجحت هذه الحركة الشعبية حقا في خلق مجال جديد والذي تم بطريقة سريعة وعميقة وزعزع أركان النظام البيروقراطي، والذي عمل على خنق المجتمع. ولكنه قام بعملية انقلاب ليس فقط ضد القيم التي كانت تبدو أنها تجمعهم في مجال واحد من أجل النضال كالحزبية، الديمقراطية والمساواة في الحقوق...، لكنها انقلبت ضد الأفراد أنفسهم بصفتهم حاملين لهذه القيم. فهؤلاء (المثقفون العضويون) كما يسميهم غرامشي Gramsci، والذين عانوا كثيرا من الأشكال المختلفة من الضغط والرقابة من قبل البيروقراطية، نظرا لتشبههم بالجماهير عن طريق (البراكسيس Praxis) والذي ترجم عند أغلبيتهم، في الوقوف بالصفوف الأولى من أجل النضال الشعبي⁵². وأمام هذا الشكل من النضال، أين كان المثقفون مجردين من أية وسيلة للدفاع والوقوف أمام الخصم والدفاع ضد نظام الحكم، ومع حق الأفراد، ومن أجل الحريات وخاصة

الحرية الأكاديمية ... ولكنهم لم يكونوا مستعدين، ولا متوقعين أن يجدوا أنفسهم في مواجهة المجتمع في حد ذاته. ذلك أن الثقافة التي بدأت في التكوّن كانت قائمة على أساس أنها تريد أن تؤسس (مجتمع ملائكي)، وتنعت الآخرين (بالشياطين)⁵³.

ونتيجة لهذه الوضعية، وجد المثقفين أنفسهم على الهامش متخلفين عن الحركة الاجتماعية، بل أكثر من هذا، فقد وجدوا أنفسهم في وضعية الأعداء لهذه الحركة، فقد أصبحوا فريسة يسهل الانقضاض عليها، وضحايا مستهدفين للقضاء عليهم. فالديناميكية الاجتماعية، قد عرفت انقلاب في المعنى والذي انعكس على المثقفين في فترتين، ففي الفترة الأولى خلق تشويشا عميقا في شعور المثقفين وعكس (صورة ذواتهم)، إذ كانوا يعتبرون (أصدقاء الشعب)، في حين جعل منهم الخصوم في الفترة الثانية، فهؤلاء الخصوم (المثقفين) لم يواجهوا، ويواجهوا وفق المعايير المعتادة، عن طريق الكتابة ونقاش الأفكار ... إلخ، كل الطرق التي كانت ممنوعة أو مراقبة من طرف البيروقراطية، ولكنها بقيت الأداة المألوفة للفعل السياسي. ولكنهم الآن (المثقفين) يحاربون ويغتالون في بعض الأحيان بطرق بشعة وشنيعة⁵⁴.

فالضحايا الأوائل للعنف المسلح كانوا المثقفين - جامعيين وأطباء، صحافيين ونقابيين - أي الممثلين للآراء النقدية وخاصة المتعلقة منها بالنقاش العمومي والقضايا التي تهم المجتمع المحكوم عليه بالخطيئة وذلك لدرجة تأثيرها على الجماهير الشعبية. ومن بين هؤلاء الضحايا نجد (جيلالي ليايس). فتاريخ اغتياله في مارس 1993 يعتبر تدهينا لمرحلة الاغتيالات التي مست العشرات من المثقفين. حيث كانت هذه الاغتيالات تتم بطريقة وحشية وبربرية وتأخذ شكل طقوس. فمن شهر ماي 1993 إلى غاية ديسمبر 1994 تم اغتيال 23 صحفيا، ومن بينهم كتاب وشعراء، وتم اغتيال في نفس الفترة أكثر من 20 جامعيًا، من بينهم أساتذة من المستويات العليا، وكذلك فنانيين من طراز عالي في مجال الأغنية والمسرح، وأكثر من عشرة نقابيين، وخاصة الذين ينشطون في قطاع التعليم⁵⁵.

ففي القطاع الجامعي، كان المثقفين المغتالين أساتذة من الوجوه المشهود لها بالتأهل العلمي كما كانوا يحظون باحترام كبير من طرف الجميع. وقد كانت تتم عملية الاغتيال في بعض الأحيان أمام مرأى الجميع، وذلك من أجل التهيب وإعطاء المثال للغير. فهذه الفئة من المثقفين الذين اغتيلوا كانوا يمثلون ما نسميهم بحملة للمعنى *Porteurs du sens*، ومعلمي المعنى *Maitres du sens*، وقد كانوا يحظون بالإصغاء من طرف المقربين منهم، بل من طرف غالبية الجماهير. فقد كانوا يتدخلون ويشاركون عبر وسائل الإعلام (التلفزيون والجرائد المعروفة، والمحاضرات) حول الكثير من المواضيع والتي تكون في بعض الأحيان خارجة عن مجالات تخصصاتهم، ولكن الأهم من كل هذا هو أنهم كانوا يضعون القيم والمثل من أجل إرساء معالم لمشروع مجتمع⁵⁶.

وعلى الرغم من الصعوبات والتهديدات التي لقيها المثقفون أثناء الأزمة في العشرية الأخيرة من القرن العشرين، إلا أننا نجد رجالا ونساء بقوا يعملون على تحمل مسؤولياتهم الفكرية والثقافية، وبطرق مختلفة، فقد كانوا يدرسون، يكتبون، ينشرون مقالات وكتب، يتدخلون عبر وسائل الإعلام، وينشئون

دور النشر، كما عملوا على إحياء بعض المجالات، وإنتاج منتوجات فنية. لقد وضعوا كل اهتماماتهم، ويقظتهم، ووعيمهم، وذكائهم، ومعانيمهم الأخلاقية، في خدمة المجتمع، والأمة، وقد وصلت لدرجة التضحية بأرواحهم وأنفسهم⁵⁷. وهذا ما يمكن أن تبينه القائمة الطويلة للمثقفين المغتالين. وأمام هذه الوضعية في سنوات التسعينيات، والتي تميزت بالعنف المسلح وكثرة الاغتيالات، وجد المثقفون النقديون أنفسهم مضطرين إلى الركون إلى الصمت، أو الالتحاق والانضمام إلى التيار الإصلاحي الجديد⁵⁸. وعلى الرغم من هذا بقي الكثير من المثقفين على قناعاتهم ونشاطاتهم ولو بصورة محتشمة، ووفق ما تسمح به الظروف.

الخاتمة: يبقى موضوع المثقف من المواضيع التي تثير الكثير من النقاش والجدل من قبل الباحثين والدارسين في المجال الاجتماعي والإنساني والثقافي، ولا يزال المجتمع بحاجة لوجود المثقف النقدي والتنويري كي يحدد له الأهداف ويرسم له الخطط المستقبلية، وينتج له المفاهيم والقيم والدلالات والتي لا يمكن للمجتمع أن ينمو ويتطور بدونها. أما بالنسبة للمثقف الجزائري الحالي فهو مطالب بإيجاد الحلول والأجوبة التي يطرحها الواقع والمجتمع باستمرار، وذلك بترجمة هذه الوقائع إلى مفاهيم ونظريات، ومن ثم صياغتها في شكل اطر نظرية حتى يتسنى له فهم هذا الواقع الذي يتغير ويتحول باستمرار. كما أن المثقف الجزائري ملزم بمواكبة التحولات الجذرية والعميقة التي يشهدها المجتمع جراء التطور المتسارع والرهيب الذي تعرفه وسائل الاعلام والاتصال الحديثة.

الهوامش:

¹Saddak Benkada, Publicistes journalistes, anciennes et nouvelles élites du Maghreb, édisud, Aix- en Provence, 2003, p. 99.

² Istivan Lokos, « Elites et sentiments entre les deux guerres mondiales,» anciennes et nouvelles élites du

Maghreb, IREMAM, éditions Aix-en-Provence, p. 118.

³ فلاديمير ماكسيمكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، أنتلجنسيا المغرب العربي، دار الحكمة ودار النهضة، الطبعة الأولى، 1994، ص 69.

⁴ Abd-el-Kader Djaghloul, Lettrés, intellectuel et militants en Algérie, 1880-1950, Urasc – Oran - Alger 1988, p 18.

⁵ Nouara Hocine, les intellectuels algériens, éditions DAHLEB, Alger, 2005, p. 171.

6Ibid. pp. 168 – 169.

7 Saddak Benkada, Op.cit. p. 103.

8 Nouara Hocine, Op.cit. p. 169.

9 Mostapha madhi, hommage à Djilali liabes, éditions casbah, Hydra, Algérie, 2006, p.65.

10 Nouara Hocine, Op.cit. . p 280

11Ibid. p. 281

12 العربي بن الزبير، المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات المتحف الوطني للجيش، الجزائر، 1986، ص 41.

13 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص 76.

14 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 22.

15 نفس المرجع، ص 109.

16 فلاديمير ماكسيمنكو، مرجع سابق، ص 08.

¹⁷ Gilbert Meynier, les cadres du FLN – ALN, 1954 – 1962. Anciennes et nouvelles élites du Maghreb, IREMAM, éditions Aix-en-Provence, p.214.

¹⁸ Ibid, p 215.

¹⁹ Ibid. p.212.

²⁰ Ibid. p.216

²¹ Mustafa Lachraf, des noms et des lieux, édition casbah, Alger, 1998. p. 90.

²² Ibid. p. 177.

23 Nouara Hocine, Op.cit. p. 280.

24 Ibid. p. 171.

25 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 110.

26 نفس المرجع، ص 169.

²⁷ Nouara Hocine, Op.cit. p. 176.

²⁸ Gilbert Meynier, Op.cit. p.215.

29 Ibid, p.p. 216 - 217.

30 Ibid, p. 220.

31 Ibid, p. 220.

32 Ibid. p. 211.

33 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص.111.

34 نفس المرجع، ص. 164.

³⁵ Nouara Hocine, Op.cit. p. 183.

³⁶ Ibid. p.p.178-179.

37 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص. 08.

38 نفس المرجع، ص. 76.

39 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 22.

40 Laszlo Nagy. « Ferhat Abbes, Personnage prématuré, personnage. Dépassé? »
Anciennes et nouvelles élites du Maghreb, Op.cit. p.123

41 Yamina Batahar, Les groupes émergeant des chimistes, anciennes et nouvelles
élites du Maghreb, IREMAM, éditions Aix-en-Provence, p. 250.

42 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص 123.

43 نفس الرجع، ص 122.

44 عبد القادر رابحي، "أيدولوجية الرواية والكسر التاريخي" الأدبي والأيدولوجي في رواية التسعينات، أعمال الملتقى
الخامس للنقد الأدبي في الجزائر، جامعة سعيدة 2008، ص 53.

⁴⁵ نفس المرجع، ص 53.

46 Mostapha madhi, Op.cit. p. 67.

47 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص.ص 110-111.

48 Malika Kebbas, L'intellectuel en question dans (la traversée) de Mouloud Mammeri, INSANIYAT, N°14-15 Mai-decembre, 2001, p.170

49 عبد القادر رابحي، مرجع سابق، ص 49.

50 نفس المرجع، ص.49.

51 نفس المرجع، ص 49.

⁵² Ali El Kenz, Les écrits d'exil, éditions CASBAH, Alger, 2009, p 281.

⁵³ Ibid, p.295.

⁵⁴ Ibid, p. 281.

55 Ibid, p.280 .

56 Ibid, p 294.

⁵⁷ Mustapha madhi, Op.cit. pp. 72 – 73.

58 Mohamed Arkoun, humanism et Islam, editions el barzakh, Alger, 2006, p.164.